فاعلية الأدب العربي في أدب أوربا الغربية (الشعر الأندلسي نموذجا)

د. رشا أبو بكر سعد / الجامعة الأمريكية القاهرة

لا شك أن الدراسات المقارنة الحديثة أسهمت في وضوح الأثر الاستشراقي لفضل العرب على الثقافة الأوربية في إطار محاولات جادة ومستنيرة لتصحيح المفاهيم والكشف عن القيمة الكامنة في التراث العربي الأندلسي.

وقد كان للمستشرق الإسباني(آسين بلاثيوس) دور كبير في التعريف بتراث العرب العظيم في الأندلس وسبقه كثيرون من المتخصصين في الدراسات العربية والأندلسية منهم:خوليان ريبيرا ،وآنخل بالنثيا،وجارثيا جوميث،وبدرو مارتينيث وغيرهم.

فقد تأثر الشعر الأوربي بالشعر الأندلسي وخاصة فن الموشحات والزجل الذي ابتكره شاعر يدعى مقدم بن معافي القبري الضرير(225-299ه)،وقد استقى الشعراء التروبادور البرفنساليون من الموشحات،وانتشر هذا القالب الفني في الأوساط الأدبية في أوربا، فيعد فن الموشح والزجل من الفنون الشعرية التي ولدت في البيئة الأندلسية وقد كشف خوليان ريبيرا في أثناء بحثه عن ديوان "ابن قزمان" أصول الشعر البروفسالي الذي ظهر في جنوب فرنسا.[1]

فالزجل يتكون من أدوار كل دور يتكون من مطلع أو مركز ومن ثلاثة أبيات أو أكثر متفقة القافية،فيما بينها تسمى الأغصان،وبيت آخر أو أكثر هو القفل،وقافيته ووزنه من نفس قافية ووزن المطلع وقد ظل هذا الطراز الشعري باقيا في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى وقد ترجم آنخل بالنثيا مقطوعات زجلية منها للشاعر البروفنسالي"كونت بواتييه"الذي يعد من أشهر شعراء التروبادوربقوله[2]:

إن لي شوقا للغناء

ولهذا سأنظم أنشودة أتغنى فيها بآلامي

ولكنى لن أكون عاشقا

(1) د.الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة, القاهرة، دار المعارف ط3، 1987،ص191.

(2) آنخل بالنثيا:تاريخ الفكر الأندلسي، ت: د. حسين مؤنس، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ط1 1955، ج2ص615.

ومن المقطوعات التي استمد منها"ربييرا"دراسة الموسيقى في العصور الوسطى"أغنية العربيات الثلاث"[3]في ديوان بلاثيو:

في جيان

عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث عربيات بائعات الجمال

ذهبن يجمعن الزيتون

فوجدته قد جمع في جيان

عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث عربيات فياضات بالحيوية

ذهبن يجمعن التفاح

فوجدته قد جمع في جيان

عائشة وفاطمة ومريم

أما الموشحة فنظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين على هيئة الوشاح فالموشحة هي الطريقة المهذبة للزجل ولكن بإسلوب فصيح .

وأبان "ريبيرا" أن المسلمين الذين فتحوا الأندلس لم يكونوا كالرومان الذين غزوا أوربا ببربرية ووحشية ومزقوا إسبانيا شر ممزق، بل جاء العرب لينقذوا إسبانيا من براثن الظلم والطغيان، وتعايشوا معهم، وأدى ذلك التعايش إلى التزاوج بين العرب والإسبان، وارتقت الحياة رقيا طبيعيا، في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وكان السبيل إلى الوصول إلى المناصب الكبرى متمثلا في حفظ القرآن ودراسة السنة والفقه وعلوم العربية؛ فأقبل الإسبان على ذلك واستمتعوا بهذه العلوم حتى ترددت في

دولة الأندلس إبداعات في العربية ألفها أناس من أصول إسبانية[4].

وأظهر "بيدال" أن فكرة الحب النبيل التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالي نجد أصلها في الشعر الأندلسي حيث يرى أن هذه الفكرة قد عرضها ابن حزم في طوق الحمامة وأنها كانت فكرة سائدة عند أهل الظاهر في نظرتهم إلى الحب[5].

([3]) آنخل بالنثيا:تاريخ الفكر الأندلسي، ، ج2ص629.

([4]) د.الطاهر مكي: دراسات أندلسية، ،ص173.

([5]) د.صابرعبد الدايم: الأدب المقارن بين التراث والمعاصرة،القاهرة،،دار الكتاب الحديث، ط1، 2010،ص92.

فكتاب طوق الحمامة لابن حزم يعد دراسة نفسية لمشاعر الحب بين الرجل والمرأة والذي تمكن قراءاته في الروسية والفرنسية والإنجليزية باعتباره تجارب إنسانية؛ فأصول نظرية ابن حزم الفلسفية مبثوثة في كتاب البدور الزاهرة للأصفهاني وتتكأ كما يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون على النظرية الإغريقية التي ترى أن "الحب تعاسة مادية، وقوة طبيعية، لا مهرب منه، أعمى لا عقل له ولا غاية".

فمثلا يقول:ابن زيدون[6]

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا

فالغزل الأندلسي "يصور من أحوال النفوس ما لا يصوره غيره؛ لأنه يكشف عن دخيلة المحب، وسريرته، كما أنه لا يمثل عاطفة قائله وحده بل يمثل العاطفة الإنسانية الخالدة، فيهز مشاعر القراء من كل جنس وقبيل، وهو - أيضًا- من أقوى فنون الشعر العربي انطباعا بالبيئة وتمثيلا لأحوال المرأة كجمالها وتجملها وأخلاقها، مما لا يصوره بقية فنون الشعر إلا ناقصًا وهو إلى ذلك كله أبرز فنون الشعر تأثيرًا فيما بعده من العصور معنى وخيالا وأسلوبًا، وأبعدها عن النحل والوضع؛ لأنه لا يؤيد عصبية قبلية، ولا يعضض نزعة حسبية"[7].

شعراء الأندلس لم ينجرفوا وراء عاطفة الحب في شهوانية الرذيلة بل كان غزلهم عذريا نسبة إلى قبيلة عذرة التي يفضل رجالها "الحزن الحلو، المستسلم للشوق، للحب الأفلاطوني على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة، ويعرفون كيف يموتون حبا قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأفراح العفيفة"[8]. وامتد هذا التأثير عند الشاعر "بترارك"صاحب ديوان :أشعار إلى سيدتي لورا[9]

ويعد تجسيدا فنيا لتأثر الشاعر بالنبض الأدبي عند العرب والمسلمين فأغانيه في هذا الديوان تتسم بعذوبة الحب ورقة الغزل واستلذاذ الشجن،فقد عبر في هذه الأشعار عن حبه لمحبوبته،وعن أمله وبأسه،،وصب فيها حزنه العميق لموتها يقول في مقطوعة "لا سكينة لي في الليل"

([6]) ابن زيدون،ديوانه،ت:شرح وتعليق: كامل كيلاني،عبد الرحمن خليفة،مطبعة البابي الحلبي،ط1 ،1932 ،ص60.

([7]) د. أحمد الحوفى، الغزل في الشعر الجاهلي، بيروت، دار القلم، ط1، 1961 ص3- 4.

([8]) د.الطاهر مكي: دراسات أندلسية، ،ص176.

([9])د.صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،ص93.

تملك على الحبيبة لبي

لكني استمد من ذلك راحتي

فمن معين واحد نابض متأنق

ينبع غذائي من حلو ومر

إن بدا واحدة فيها شقوقي وراحتي

وهكذا أجاهد في الحب جهادا غير محدود

فأحس كل يوم ألف موت وألف حياة

ألا ما أبعد الطريق إلى سكينتي وسلامي.

قد كانت هذه النظرة متأثرة بنظرة الإسلام للحب الذي يحرص أن يكون طاهرا عفيفا، "فمن أحب فعف فمات مات شهيدا".واتفق "بوكاشيو "معه في هذه النظرة المثالية في الحب عند العرب وكذلك بوضع المرأة العربية في ظل الحضارة الإسلامية[10]

كما أن الشاعر الإسباني "خوان رامون خمينيث "هو صاحب النظرية التي تقول أن الشعر الأندلسي والشعر الصوفي الإسباني المتأثر بمتصوفة الأندلس هو أصل الرمزية[11].

وذكر الشاعر خوان الشاعر الإسباني "أدلفوا بيكر"من إشبيلية الذي يعد أبو الشعر الحديث في إسبانيا ويقول عنه"إن بيكر يعبر بصوته الجدران وأجواز الفضاء هذا الصوت العادي والأسطوري صاحب نغمة مثل قيثارة سان خوان دي لاكروث ليس من السهل أن تتكرر في الشعر الإسباني فيما بعد إنه شعر خليط من الشعر الشعبي الأندلسي نومن شعر الشمال الأوربي ،شعر يجمع بين العنصر القوطي والعنصر العربي وهو شيء بارز عنده من أي شاعر إسباني آخر[12].

أكد على هذه الفكرة السابقة أيضا الباحث الإيطالي"خوسيه مياس فايكروما "حيث يرى أن الشعر الإيطالي الديني في العصر الوسيط والذي يطلق عليه اسم المدائح وينظم باللهجة الدارجة كان على صلة وثيقة بعروض الزجل الأندلسي[13].

([10])د.صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،ص94.

([11]) د.حامد أبو أحمد: دراسات في الأدب المقارن،القاهرة،ط1، 2003،ص93.

([12]) د.حامد أبو أحمد: رائد الشعرالإسباني الحديث خوان رامون خمينيثالقاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2010،1،ص ،235، نقلا عن خ.ر.خمينثن،العمل الممتع،ص110.

([13]) د.صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،ص91.

كما نظم الشاعر "خوان دل أنثيا "مقطوعات دينية تتضح فيها طريقة الشعر الأندلسي ومنها هذه المقطوعة مترجمة إلى العربية[14]:

لا تغب عني فإني أموت يا سجاني

لا تغب عني فإني أموت

عجل بالمجئ...حتى لا أخسر حياتي

وفيك لم يضع إيماني ...يا سجاني

فك عني هذه القيود...وفيها قاسية آلامي

حتى تغيب عني...تقضي على...يا سجاني

وأعلن المستشرق الإسباني "أسين بلاثيوس"أن "دانتي في الكوميديا الإلهية تأثر بالإسلام تأثرا عميقا واسع المدى يتغلغل حتى في تصويره للجحيم والجنة،وكان لقصة المعراج ،ووصف كتب التفسير لها،وكذلك لكتاب "المعرا ج"الذي ألفه "ابن عربي في وصف رحلة المصطفى-صلى الله عليه وسلم- إلى السماء ،وكذلك لرسالة الغفران لأبي العلاء المعري[15]

ونرى الأثر الصوفي الإسلامي للشاعر جوته الألماني في كتابه:الديوان الشرقي[16]. فقد اهتم فيه بقصص الحب العربية فموضوعه وديدنه الحب فيقول:

ليلى،ومجنون الفلا

نعما بحبهما الطويل

هذي بثينة مع جميل

هويا على مر النسيم

ولابن الزقاق موشحة غزلية كان لها أثر على آهات البروفنساليين الغزلية يقول[17]:

خُذ حديثَ الشوقِ عن نفسي وعن الدمعِ الذي همعا

ما ترى شوقي قد اتقدا

([14]) السابق ،نفسه.

([15])السابق،ص94.

([16]) د.داود سلوم ،دراسات في الأدب المقارن التطبيقي،بغداد،دار الحرية للطباعة،ط1984،1،ص109.

([17])ابن الزقاق:ديوانه، ت: عفيفة محمود ديراني، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1964،ص299.

وهمـــــي بالـــــدمع واطـــــردا

واغتـــدى قلبـــي عليـــكَ ســـدى

آه مـــــن مـــــاءٍ ومـــــن قـــــبسِ بـــين طَرفـــي والحشـــا جمعـــا

بـــــأبي ريـــــمٌ إذا ســـــفرا

أطلعـــــــتْ أزرارُه قمـــــــرا

فاحـــــذروه كلمـــــا نظـــــرا

فبألحـــــاظِ الجفـــــون قِسِـــــيْ أنـــا منهـــا بعـــضُ مَـــنْ صـــرعا

أَرتضـــــيه جـــــارً أو عـــــدلا

قـــد خلعـــت العُـــذرَ والعَـــذلا

إنمـــــا شـــــوقي إليـــــه فـــــلا

كَـــمْ وكـــم أشـــكو إلـــى اللَّعـــسِ ظمـــــأي لـــــو أنـــــه نفعـــــا

فالموشحة كما نرى تبرز شوق الشاعر وحنينه فيذكر لهفه وهيامه،وموته حبا ووجدا في محبوبه ،وهذا الشوق المتقد يجعل الأنفاس حارة ملتهبة،ودموع العين سخية تبث ألامها وأحزانها،وحرارة الشوق في القلب متقدة،والمحب بين ماء دموعه المنهمرة،ونار شوقه المشتعلة لا يستطيع إطفاء نار قلبه ،ومن خلال هذا الشجن الغنائي الذي نلمح فيه أصداء تأثر الشعراء كـ "جيوم التاسع"،"وكونت بواتييه"وغيرهم ممن ساروا في أشعارهم على موسيقى الشعر الأندلسي.

ومن خلال ما سبق نستنتج الآتي:

اعتمدت في الدراسة على المنهج المقارن الذي أبان عن أصداء الشعر الأندلسي على الشعر الأوربي مبينا التأثيرات في المنتج الأدبي الأوربي والمنابع التي انتهلوا منها أو استوحوها أو تأثروا بها.

1- قد أبدع الأندلسيون شعرًا كان نتاجًا شرعيًا للبيئة بظروفها الجغرافية والتاريخية من قصائدَ تنمُ عن خيالهم الخصب الذي خضبته الطبيعة الأندلسية الجميلة ،بصبحها المسفر،ودوحها المثمر.وقد كان امتداد الحكم الإسلامي في الأندلس(92-899هـ) أثرًا كبيرًاً في شتى ميادين الحياة فيها، بل امتد تأثيره لأوربا بأسرها.

2-ارتقت الحضارة الإنسانية فى تطورها من خلال الأخذ والعطاء والتأثير المتبادل. فكان انتقال الشعر الى أوربا ليس عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والإسبانية فقط وإنما من انصهار سكانها فى بوتقة الحضارة العربية من خلال المساجد الاسلامية التى كان يدرس بها الرهبان واليهود ومجالس الأدب العربى التى كان يعقدها الخلفاءعلى عاداتهم العربية.

3-كشف البحث أهمية الكشف عن ديوان ابن قزمان الأندلسي المتوفي 1160م ،وكتب في عامية أهل الأندلس وهي خليط من العامية العربية والرومانثية الأندلسية

4-كشف البحث أنشعراء التروبادور الذين صاغوا كلماتهم على موسيقى الزجل الأندلسي وما زالت آثار الموشحات والزجل باقية في ألحان أوربا وموسيقاها خلال العصور الوسطى إلى اليوم خاصة في الأغاني الشعبية الفرنسية المعروفة باسم "الروندو"، وهناك مقطوعات شعرية فرنسية راقصة سارت على موسيقى الشعر الأندلسي مثل: جيوم التاسع الذي شارك في الحروب الصليبية سنة 1094م ميلادية وعاد سنة 1126 ونظم قصائد على غرار الموشحات

والزجل الأندلسي مع تغيير في بعض الأشياء كالغصن والقفل والمركز وكثير من هذه المصطلحات الفنية.

5-تناول البحث مجموعة شعراء مثل:كونت بواتييه، ،وبوكاشيو، ودانتي،وبترارك وغيرهم، حيث نجد في أشعارهم أصداء التأثر بالأدب العربي االأندلسي.

6-كشف البحث عن الشاعر خوان رامون خمينث وإطلاعه على الشعر الأندلسي وتأثره الكبير به هو والشاعر الإسباني "أدلفوا بيكر"من إشبيلية الذي يعد أبو الشعر الحديث في إسبانيا .